العقبة

جلس السائق « مدبولى » إلى عجلة القيادة من سيارته العجوز ، يجريها على الطريق العريض ، إذ يتحوى أمامه على مد البصر كالرقطاء فى انسيابها تنكمش وتنبسط ، فلا يملك هو إلا أن يروض سيارته ، مطاوعاً فى حركاته ليات ذلك الطريق ، وعلى جانبيه تترامى الحقول شاسعة تكسوها خضرة ونضرة.

كان هذا الصباح على غير المألوف من عادته ، جهم السحنة ، عاقد الجبين ، يضرب فى صمت وسهوم ، وبين شفتيه لفافة تبغ رخيصة ، يجذب منها الأنفاس وكأن دخانها المتصاعد هو أنفاسه المكروبة ، ينفثها من صدره ، تسرية عن فؤاده الكليم.

كيف لا وقد ألفاه الصباح الندى ، مقتعداً سريره الخشبى من حجرته المعتمة ، وقد سهر عامة الليل ، تتوسد حضنه المكتنز صغيرته « مبروكة » صريعة الحمى ، تسرى فى أوصالها رعدة ، فكأنها عصفور يدف بجناحيه مبتغياً على ضعفه الفكاك والانطلاق ، وعن كثب منه زوجه وقد تداخلت فى خمارها الأسود

وجلبابها السابغ كقطعة من الليل ، لبثت حيث هي جامدة لاتحسن من أمرها إلا تنهد الاستسلام ، وفي مآقيها تتحير الدموع .

كان ذلك المشهد يتخايل أمام عينيه وقد جمحت السيارة جمحة أفقدتها الاتزان ، فشدد « مدبولى » قبضته على عجلة القيادة ، وهو يفيق من غفوته ، نائياً بالسيارة عن مخاطر الطريق ، وقد ثارت ثائرته ، فانبعث يسب ويلعن ، وما تمالك وهو فى قمة غضبه إلا أن يبصق بملء فيه ، بصقة عريضة ، ينعى على الطريق اختلاله .

وسرعان ما ألجم سيارته يحد من سرعتها ، فما لبثت أن تهادت مجهدة تتعثر خطاها بتموجات الطريق ، ما تلفظها فجوة حتى تتلقاها أخرى ، وكأن الطريق يستبين له ، وجه عكر تفشت فى نواحيه الغضون والتجاعيد .

حقاً إن الطريق ليفتقر إلى يد حاسمة تتولاه وتحد من اضطرابه وفوضاه . إنه وهو على حاله هذه ، يشكل على لقمة العيش ، ولا ريب ، الخطر كل الخطر .

ما أحوج « مدبولى » إلى سبيل هين ميسور ، يتلقى سيارته وديعة غالية يصونها ويحرص عليها ، ضامناً له الرزق فى سماحة وأمان.

لقد اعتاد « مدبولى » أن يصاحب « الطريق العريض »

مع مطلع كل فجر ، بعد أن يؤدى الصلاة حاضرة ، فيعرج على الترعة ينعش سيارته بما يسكبه عليها من الماء ، ثم يعرض خدماته على المسافرين عند الموقف الكبير ، مرتضياً ما يقدم إليه من أجر دون مماكسة ونزاع .

فلْيسرْ على بركة الله وهديه .

لقد يسر الله رزقه فازدهرت تجارته ، وعمه خير ، وما عتم أن استبانت على السيارة العجوز مخايل تلك النعمة وذلك الخير ، فنضت عنها أسمالها واكتست بردة الشباب النضر ، وقد رصعت جوانبها حكم وأمثال تزيدها نضرة وبهاء .

وأصبح « مدبولى » يزهو بسيارته ، يسوسها فى رفق ويحافظ عليها حفظ الأم لوليدها ، فلا يفتأ يستشف وجه الطريق فى تيقظ وانتباه حتى أضحى به خبيراً وبخباياه عليماً ، كقارئ كف يطالع من بين تعاريج الخطوط كوامن الأسرار فى تمكن واقتدار .

إن ما يخيفه من الطريق فجوة تتصل بها عقبة متورمة كسرطان خبيث يتوعد الغافل بخطر محقق وهلك وشيك ، فالطريق يخفيها فى حضنه عند موقعه المرتفع حتى لتكاد تخطئها الأنظار .

إنها فى تنفخها وانبعاجها تنكر مرأى السيارات ماضية إلى وجهتها تبتلع الطريق وتطويه أشد ما تكون حيوية ونشاطاً دون

أن تتصيد إحداها، تصرعها بما تنفثه على الطريق من سم زعاف .

لا غرو أن يحمل السائق « مدبولى » فى وليجة نفسه لهذه الحدبة المتورمة حقداً دفيناً؛ ولاغرو أن ينعقد بينه وبينها صراع ؛ حتى أصبحت شغله الشاغل فى ذهاب وإياب ، لا يفتأ يلتزم الحيطة والحذر مجنداً فى معركته اليومية حواسه جمعاء: العين منه ثاقبة ترصد الطريق فى تبصر ، واليد قابضة على عجلة القيادة فى إحكام توجه السيارة وجهة أمن وسلام ، والقدم آناً تحث السيارة على إسراع ، وآناً تبطئ بها فى تحرز واحتراس .

إنه كلما تخطاها حدجها فى استعلاء وكأنه يهمس لها فى سخرية : لن تنالينى بسوء أيتها الحدبة الشوهاء ، ويخالها تبتسم له فى فتور متوعدة إياه فى هدوء دون أن تثير حولها الظن والارتياب.

لا ريب أنها باقية بقاء الطريق ، فجذورها متأصلة فى أحشائه يتعذر أن يسبر لها غور، وأن يصل إليها مبضع جراح.

ومر الوقت وشيكاً والسيارة ماضية فى مسيرها تتعثر ، و « مدبولى » يتوسم الطريق مبتئس الملامح ، يواصل التفكير فى مرض صغيرته ، وقد شعر بها تتشبث به عندما نحاها إلى زوجته ، وكأن لمسات يديها البضتين جمرات تحرق صدره ، فلا يلبث أن يزداد من عبوس وجهامة ، يجتر أحزانه ، ويقاوم

خدراً انساب فى أوصاله يكاد يطبق أجفانه .

وفيما هو كذلك ، إذا بالسيارة تصدم صدمة قوية ترفعها ثم تخفضها لتنحرف بها فى عنف على حافة الطريق ، فتتقلص فى مكانها ، ومن خيشومها يتصاعد بخار موصول هو زفرات تحسر لما نابها من توقف وانكسار .

ويزايل « مدبولى » مكانه من القيادة ، يتفقد السيارة ثائر النفس ، زائغ البصر ، مهوش الحركة ، لا يثبت على حال ، فتطالعه السيارة مهيضة الجناح ، وقد جمد محركها يلفظ فى عناء آخر الأنفاس .

ولا يتمالك « مدبولى » إلا أن يرتمى عليها بجرمه الثقيل يحتضنها وقد سرت فيه رعدة عارمة ، وكأن نهاره انقلب ليلا ، وكأنه على سريره الخشبى من حجرته المعتمة ، وعلى صدره ترقد صغيرته « مبروكة » ترجف وتهذى من وقدة الحمى ، وقد بسط لها صدره كله ملاذ أمن وسلام .

وينخرط « مدبولى » ينشج فى حرقة وهو يبصق ويبصق على الحدبة المتورمة ، على حين انبعثت قدمه تدق رأسها فى عنف واهتياج ، وكأن الحدبة المتورمة فى تثاؤبها ثغر يبتسم له ابتسامة زهو وانتصار .